

أوراق أبحاث مؤسسة قرطبة

العلمانية واللائكية في السياسة الدولية

أبريل 2015

الكاتب | جون-نيكولا بيتر

© مؤسسة قرطبة بجنيف، 2015

Fondation Cordoue de Genève
Case postale 360
CH -1211 Genève 19

Tél: +41 (0) 22 734 15 03
Fax: +41 (0) 22 734 10 34

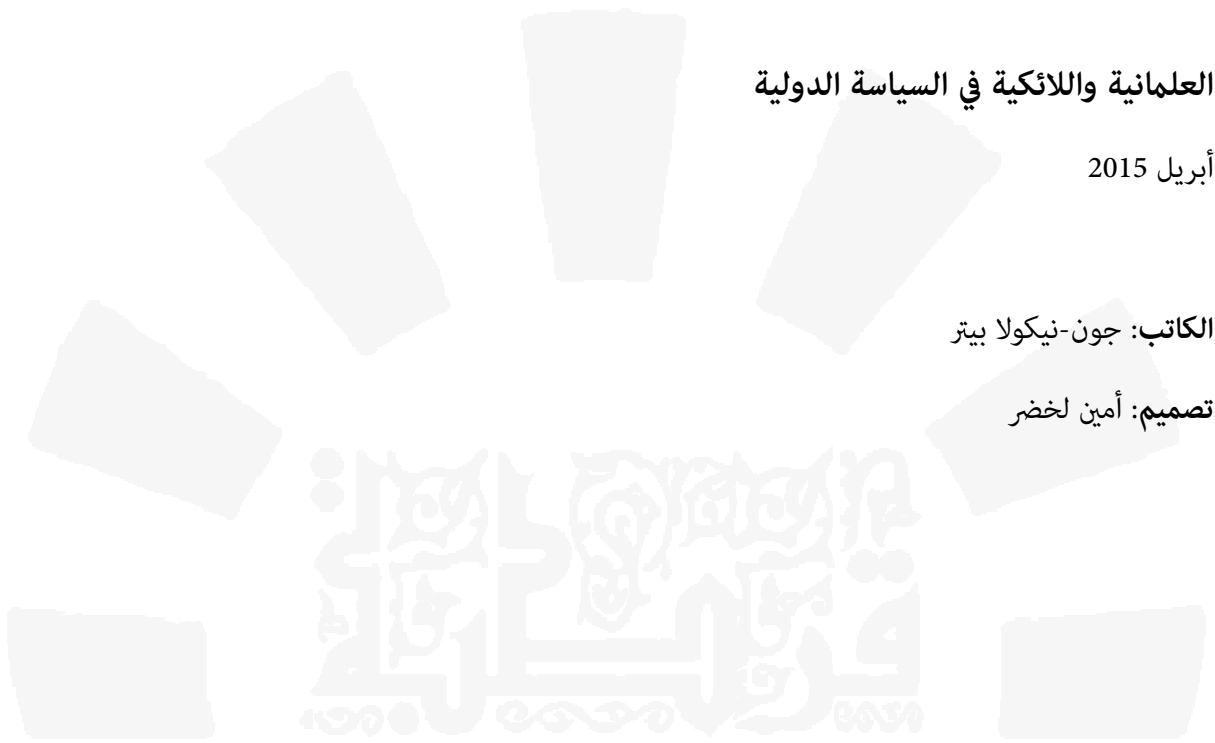
info@cordoue.ch
www.cordoue.ch

العلمانية واللائكية في السياسة الدولية

أبريل 2015

الكاتب: جون-نيكولا بيتر

تصميم: أمين لخضر



يمكن الاطلاع على نسخة من هذا التقرير في موقع مؤسسة قرطبة www.cordoue.ch
الآراء الواردة في التقارير وجهات نظر المساهمين ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر فريق مؤسسة قرطبة.

المحتويات	2
1. مقدمة	3
2. تعريف العلماني / اللائكي: عدم التوافق	4
3. كيفية استخدام مصطلح "العلماني"	4
4. استخدامات مصطلح "العلماني" / "اللائكي" في مجال السياسة الدولية	4
1.4 سويسرا	4
2.4 فرنسا	5
3.4 الولايات المتحدة الأمريكية	5
4.4 الشرق الأوسط	6
5.4 آسيا الوسطى (الاتحاد السوفياتي سابقا)	6
5. الاستنتاجات	7

يحظى البحث والتدقيق في معنى وتعريف مصطلحي "العلماني" و"اللائكي" أهمية كبرى، فالمسألة تُعدّ من مواضيع الساعة، خاصة في مجال السياسة الدولية.

وإنّ تصوّر العلاقة القائمة بين الشائين الديني والسياسي وكيفية إدارتها عملياً، ليس وليد اليوم بل يعدّ مشكلة قديمة، غير أنّ عصرنا هذا يبدو أقلّ تأهيلاً وعدّة لرفع مثل هذا التحدي. وللقيام بذلك، لا بدّ من التفكير في العلاقة بين ما هو ديني وما هو سياسي والتمييز بينهما في آن واحد. بعبارة أخرى، نحن في حاجة إلى توفير منظومة مفاهيم فعّالة ومقبولة لدى الأطراف المعنية.

من الناحية العملية، يُمكن طرح المشكلة مثلما طُرحت قبل ما يقارب الألفي سنة، عل النحو الآتي: كيف يمكن أن نعيد لقيصر ما لقيصر ولله ما لله، وكيف يمكن أن تستعيد السياسية ما هو سياسي ويحتفظ الدين بما هو ديني؟

ليست هناك إجابة واحدة على هذا السؤال. فثمة نمط من الخطاب قد يُسمّى خطأً خطاباً "حدثياً"، يميل إلى حلّ المشكلة من خلال عملية الفصل، باعتبار أنّ المشهد جامد "ثابت"، ويتصوّر هذا الطرح طرفي المشهد، الطرف الديني والطرف السياسي، كحقائق مؤسسية ذات طبيعة أبدية وجوهرية. كما ينظر هذا النهج إلى المسألة بنوع من التبسيط المفرط، فكّل ما يتطلبه الأمر، بالنسبة إليه، هو إعادة كلّ جزء إلى مكانه الصحيح من خلال الاستخدام الوفي للمنطق الذي يسمح لنا بمعرفة حقيقة الأشياء. فيجد بذلك كلّ من الدين والسياسة نفسه في فضائه الخاص به بمعزل عن الطرف الآخر، حيث أنّ هذين الفضاءين متمايزين، ما كان ينبغي أبداً تجاوزها.

وفي المقابل هناك مقاربة أخرى تتميز بفكرة مغايرة تماماً فيما يتعلّق بالعلاقة بين الدين والسياسة، انطلاقاً من مفهوم مختلف للغة ودورها في بناء الواقع، وهي تفسّر دلالة الأمر "أعيدوا إلى قيصر..." أنّه يشكل قاعدة للعمل، شبيه بإصدار أمر للسير قدماً. ولا يتمّ إصدار هذا الأمر من أجل تحقيق نتيجة نهائية معروفة مسبقاً، كما لا يحدّد هذا الأمر نهاية متوقّعة يتعيّن بلوغها. هذه القاعدة تروم بدل ذلك السير باتجاه البحث عن نموذج مجتمعي، فهو مسار غير مبرمج مسبقاً، ولا هو مضمون النتائج بشكل نهائي وقطعي، لا من حيث المحصلة المؤسسية ولا حتى بالنسبة للأفكار والمفاهيم. ومن ثمّ فإنّ "اللائكية" وفقاً لهذا النهج، ليست حالة طبيعية، أو قاعدة كونية، أو موقفاً سالفاً للحالة الدينية أو أمراً مسبقاً، بل هي نتيجة مسار معيّن يمكن وصفها بأنها من صميم الحالة الدينية، وتمنح نفسها الوسائل الكفيلة للعمل بشكل مستقلّ لكن غير منفصل عن المجال الديني.

2. تعريف العلماني / اللائكي: عدم التوافق

"العلماني" و "اللائكي" - أو "العلمانية" و "اللائكية" - هما مصطلحان بديلان. يُستخدم مصطلح اللائكية في الفضاء الفرنكفوني، ويحمل في طياته معنى خاصاً مرتبطاً بفرنسا تحديداً (أنظر أدناه). وتستمد هذه المصطلحات جذورها في المفردات الدينية للتمييز، داخل الكنيسة على سبيل المثال، بين النظم العلمانية والنظم الرهبانية. فمصطلح العلمانية يتباين أو يتميز عن الديني، في حين أن مصطلح "الدين" له تعريفات متعددة واستخدامات لا يمكن اختزال بعضها في البعض الآخر، والأمر كذلك بالنسبة لمصطلح "العلمانية"، ومن ثم لا يوجد تعريف مستقر يمكن اعتماده، ولذا ينبغي تحديد المعنى المقصود عند استخدام هذا المصطلح أو ذاك.

3. كيفية استخدام مصطلح "العلماني"

"العلماني" يُحيل إلى مسار مستقل، دون أن يكون بالضرورة منفصلاً، عن الفضاء الديني، كما يمكن أن يُحيل مصطلح "العلماني" إلى فضاء مشكّل لاحقاً، نتيجة تفاوض أو تحاور، لكنه لا يُحيل إلى واقع محدّد مسبقاً.

ينبغي استعارة طريقة استخدام مصطلح "العلماني"، في مجال السياسة، من نموذج ممارسة العلوم التجريبية¹، حيث يشترط المنهج العلمي (التجريبي) في الواقع أن يكون الناتج العلمي قابلاً للاختبار بين الأفراد وبين المجموعات، ولا ينبغي أن يكون الناتج العلمي تابعاً لمصفوفة محدّدة لبناء الواقع (نظرة كونية أو دين) أو رهينة أيّ واقع محدّد مسبقاً. بعبارة أخرى، يجب أن يكون الناتج العلمي ثمرة لمسار مستقلّ عمّا هو ديني وعن الأديان، غير أنّ هذه الاستقلالية لا تعني الانفصال والانغلاق عن الفضاء الديني، ومن جملة المنتجات

العلمية، يبقى كل مجتمع حرّاً في تحديد ما يعتبره مطابقاً لقيّمه.

وفي المجال السياسي، تتمّ النتائج المتمخضة عن المفاوضات بشأن قضايا ملموسة وعملية ذات صلة بالتعايش الملموس بين المجموعات المختلفة، بشكل يكون فيه الناتج الملموس مطابقاً لقيم وقواعد المصفوفة الدينية (أو تشكيل الواقع) لدى كلّ مجموعة شاركت في المفاوضات. ويعدّ نتاج هذه المفاوضات بين المجموعات فضاءً علمانيّاً، فهو ثمرة مسار مستقلّ عن هذا الدين أو ذاك، أي مسار محايد دينيّاً.

إنّ مجال "العلماني" ليس أمراً مسبقاً، بل هو نتيجة تفاوض أو حوار، ولا يتوسّع في جميع مناطق العالم بنفس الطريقة، فلطالما عاشت المجموعات في إطار منظومة عقائد مشتركة بشأن الكيفية التي ينبغي أن يُسيّر وفقها المجتمع، ولم تطرح هذه المعتقدات أيّ إشكال، ومَرّت دون أن يلاحظها أحد، وهو ما يحدث على المستوى المحلي، غير أنّ توافد المهاجرين الجدد يُحدث تغييراً في معطيات الوضع القائم، وهذه مسألة أخرى.

4. استخدامات مصطلح "العلماني" / "اللائكي" في مجال السياسة الدولية

يختلف استخدام مصطلح "العلماني" من سياق لآخر، فالسياق التاريخي الذي يشكّل أرضية نشأة المصطلح هو الذي يحدّد معناه ويضيف عليه وضعه الحيوي. وفيما يلي بعض الأمثلة عن ذلك.

1.4 سويسرا

نجحت سويسرا، بفضل عملية حوار رصين قائم على أسس عقلانية، في تحقيق تعايش بين مجموعات ذات تقاليد لغوية وثقافية ودينية مختلفة، وذلك من خلال التركيز على مسائل ملموسة وعملية، بدل الخوض في المناقشات الإيديولوجية أو المتعلقة بالقيم. وفي إطار

¹ الفكرة التي طوّرها الفيزيائي والأخصائي في نظرية المعرفة للعلوم، كارل. ر. بوبر، وخاصة في "عقم المذهب التاريخي" (The Poverty of Historicism)، روتليدج، 2002 م.

المناهض لما هو ديني وارتباطها به، وهو أمر منطقي، لكن غير مقرر به.

3.4 الولايات المتحدة الأمريكية

المفهوم الأمريكي للعلمانية مختلف تمامًا ويتميز بحيوية، حيث يقوم على مبدأ ملخص في التعديل الأول للدستور: "يجب على الدولة ألا تسنّ قوانين تكسر دينًا من الأديان أو تحظر حرية ممارسته"، أي يجب ألا تتدخل الدولة لا إيجابًا ولا سلبيًا (مبدأ الحياد). بعبارة أخرى، يتعلّق الأمر بموقف محايد دينيًا، لكنه لا يتعارض مع الدين فيما يتعلّق بمظاهره في الفضاء العام، عكس ما هو عليه الأمر في فرنسا. ويستمدّ هذا النهج أسسه من فلسفة سياسية براغماتية وليبرالية، تقوم على الإيمان بحرية الفرد، واحترامها، وإعارتها أهمية حتى قبل الدولة.

إذا كانت اللائكية في فرنسا تُفهم كحركة انفصال ورفض وحماية للدولة من الكنيسة، ففي الولايات المتحدة، تكسّي العلمانية، لأسباب تاريخية وثقافية، معنى مغايرًا، وتُفهم كحركة تصبو إلى حماية المجتمع المدني من تدخل الدولة في مجاله.

بين الولايات المتحدة وفرنسا، هناك نظرتان بديهيتان للواقع مختلفتان اختلافًا جوهريًا في مجالي المعرفة واللغة (البراغماتية مقابل العقلانية). ففي فرنسا، ثمة ميل إلى إلصاق معنى ثابت إلى علامة ما أو رمز من الرموز، كقضية الحجاب على سبيل المثال، في حين لا تحظى الرموز في الفضاء الأنجلوسكسوني بمعنى في حدّ ذاتها، بل يتوقّف ذلك على كيفية استخدام هذه الرموز، وليس هناك أيّ سبب منطقي ومبرر لإصدار أحكام مسبقة لاستخدام الرموز (الذي يُفهم كمعنى).

مقاربتنا لممارسة العلمانية في سويسرا قريبة إلى حدّ كبير من المقاربة التي يتبنّاها الأميركيون.

هذا المسار من الحوار تنبثق حلول عملية منسجمة مع منظومة القيم أو المصفوفة الدينية لكل مجموعة، وفي الوقت نفسه، تكون هذه الحلول مستقلة (دون أن تكون منفصلة) عنها. فكلّ مشكلة يجب معالجتها على مستواها (مبدأ التبعية). وتعالج القضية الدينية بذلك على مستويين: من جهة، من خلال مقارنة إيجابية وملموسة، على المستوى المحلي، ومن جهة أخرى، يكون الدفاع عن حريتها أو ما يمكن تسميته بـ"المقاربة السلبية أو التنظيمية"، على أعلى مستوى (الدستور).

وبفضل ثقافتها السياسية القائمة على البحث من خلال الحوار على توافق في الآراء بشأن قضايا محدّدة، تتمتع سويسرا بخبرة مفيدة وذات مصداقية في مجال "المسار العلماني" الذي لا ينطوي في جذوره على نزعة مناهضة للدين.

2.4 فرنسا

يرتبط استخدام مصطلح "اللائكية" ارتباطًا وثيقًا بصراع تاريخي بين الكنيسة والدولة، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الصراع يتعلّق أساسًا بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية، المستهدفة أكثر من البروتستانتية أو اليهودية؛ أما فيما يخصّ الإسلام، الذي يُعتبر ظاهرة جديدة في فرنسا، فقد أثار ردّ فعل على غرار الحملة التي تعرّض لها من قبل رجال الدين الكاثوليك. وفي الاستعمال الشائع، يُنظر إلى "اللائكية" باعتبارها معركة مستمرة ضد الكنيسة من أجل تحقيق الفصل الفعلي بين الكنيسة والدولة والحفاظ عليه، إذ يُخشى على هذا الفصل باعتباره غير مضمون أو مكتسب بشكل نهائي. وثمة حركة مستمرة لرفض المظاهر العمومية للدين، واستبعادها من الفضاء العام.

في فرنسا، "ترتكز" اللائكية، من أجل تأكيد بقائها في الوجود، على/ضدّ كلّ ما هو ديني، ومن ثمّ قد لا تكون هذه اللائكية مستقلة بالقدر الذي تودّ أن توحى به. وتوصف أحيانًا العلمانية وفق النموذج الفرنسي بالأيدولوجية أو الأصولية، ويعود ذلك ربما لموقفها

ثمة نشأة مختلفة تمامًا لاستخدام ولمعنى "العلمانية" في الشرق الأوسط. ولا يمكن استخدام هذا المصطلح في واقع الأمر منفصلاً عن الصراع السياسي، العنيف أحياناً، بين الإخوة الأعداء، العلمانيين والإسلاميين. حيث تعتبر الأحزاب العلمانية، المنبثقة عن حركات التحرر، نفسها معرّضة لتهديد "قاتل" في ما يتعلّق بسيطرتها على السلطة منذ أواخر سبعينيات القرن الماضي، مع بروز بديل سياسي تأسّس عن وعي على قاعدة إسلامية.

تبني التوجّه العلماني في الشرق الأوسط، معناه اتخاذ موقف علني من النزاع الدائر، ومن ثمّ فإنّ هذا المصطلح لا يُحيل إلى المعنى الذي يُفترض أنه يتضمنه، ولا إلى أيّ من وجهات النظر المتداولة في الشرق الأوسط. وبالنسبة للجزء الأكبر من المجتمع المدني القائم على أساس إيماني في الشرق الأوسط، ترادف العلمانية "ارتداء ربطة العنق" واللباس على الطريقة الغربية - خاصة بالنسبة للنساء مع ما يعنيه ذلك - وشرب الكحول والارتباط بالقوى الإمبريالية.

الدول "العلمانية" في الشرق الأوسط ليست علمانية بالقدر الذي قد يتصوّره المرء، فهي تسيطر على الدين على المستوى الأمني من خلال وزارة الداخلية، وعلى الصعيد السياسي من قبل المجلس الإسلامي الأعلى، والإداري من قبل وزارة الشؤون الدينية، والاقتصادي من خلال التحكّم في المؤسسات الدينية (الأوقاف)؛ التي تُسيّر في بعض الأحيان من قبل وزارة الأوقاف.

5.4 آسيا الوسطى (الاتحاد السوفياتي سابقاً)

حتى وإن كانت تُعرّف نفسها علناً كمسلمة، تفهم النخب (رؤساء الجمهوريات على وجه الخصوص) في

دول آسيا الوسطى ما بعد الشيوعية، مصطلح "العلمانية" الذي أضحى ضرورة في سياق حملات الاستقلال، باعتباره شرطاً ديمقراطياً، ووفق المعيار السوفياتي فهو موقف مناهض للدين. وبالإضافة إلى هذا الموقف، تسعى هذه النخب إلى السيطرة على الإيديولوجيات والتيارات الفكرية باسم "الأمن الفكري". ويستمدّ هذا المفهوم أصوله من النظرية السوفيتية، التي يمكن العثور عليها في فضاءات أخرى، والتي ترى أنّ أيّ اعتقاد أو خطاب ينطوي على نتائج عملية ضرورية يمكن التنبؤ بها. فعلى سبيل المثال، نجد أنّ مجرد إيمان مجموعة طوباوية بضرورة اختفاء الدولة، حتى وإن لم تقم بأيّ إجراء عملي لتنفيذ ذلك، وظلّت تعيش عقيدتها في عالم الأحلام، يُعرّضها مع ذلك للاعتقال والسجن والتدمير، بدعوى ضروريات أمن الدولة. نلاحظ هنا "تشابهاً قريباً" مع بداهة أداء اللغة والمفهوم الذي ذكرناه أعلاه، في تناقض مع المسار البراغماتي.

وهكذا فبدل قيام الحكومات بواجب سنّ القوانين المتعلقة بالدين بما يضمن الفصل بين مؤسسات الدولة والمنظمات الدينية، نجد أنّ جميع بلدان آسيا الوسطى، بما في ذلك كازاخستان، قد أصدرت، اقتداءً بروسيا، قوانين قمعية تهدف إلى الحفاظ على رقابة مشدّدة على المنظمات الدينية. ويتسبّب ذلك في نشوب صراعات مع المواطنين في المناطق التي تقطنها أغلبية مسلمة (وأيضاً مع مجموعات دينية أخرى)، تلك المناطق التي تشهد ممارسات دينية متصاعدة، وتطالب حكوماتها بالتقيّد بتعريف للعلمانية يضمن الفصل بين الدولة والمنظمات الدينية.

تثير مسألة العلمانية احتدام نقاشات ساخنة، تتسم بدرجات عنف متفاوتة في أجزاء مختلفة من العالم. ومن أجل إجراء نقاش بناء يتسم بقدر من النقد الموضوعي، من الضروري توخّي الحذر لدى استخدام هذا المصطلح والأخذ في الاعتبار المعنى الذي يُحيل إليه في سياق محدّد. في الواقع، هناك عدة مقاربات عند التطرّق إلى مفهوم العلمانية تستند إلى سياقات تاريخية واجتماعية مختلفة. ومن شأن مراعاة وتقدير هذا الواقع أن يسهم في التخفيف من حالة الاستقطاب التي تميّز النقاش المحموم والجدل القائم في العالم المعاصر، وفي العالم العربي الإسلامي على سبيل المثال، حيث غالباً ما يختلط الوضع في أذهان "مناهضي العلمانية"، انطلاقاً من فرضية خاطئة، تخلط بين "العلمانية" و"المناهضة للدين"، ومن ثمّ، فمن شأن انتهاج مثل هذه المقاربة المميّزة أن تقرّب وجهات النظر وتساهم بشكل كبير في تعزيز ظروف العيش المشترك في جوّ من السلام.

